جُمْهُورِيَّةُ العِرَاقِ

دِيوَانُ الوَقْفِ الشِيْعِيّ

العَتَبَةُ العَبَّاسِيَّةُ المُقَدَّسَةُ

عَدَدٌ خَاصٌّ

عَنِ العلَّامة السيِّد عليّ ابن طاووس قدس سره

تُرَاثُ الحِلَّة

مَجلَّةٌ فَصْلِيَّةٌ مُحكَّمَةٌ تُعْنَى بِالتُّرَاثِ الحِلِّيِّ

تَصْدُرُ عَنِ:

العَتَبَةُ العَبَّاسِيَّةُ المُقَدَّسَةُ

قِسْمُ شُؤُونِ المَعَارِفِ الإِسْلَامِيَّةِ وَالإِنْسَانِيَّةِ

مَرْكَزُ تُرَاثِ الحِلَّة

مُعتَمَدَةٌ لأَغْرَاضِ التَّرْقِيَةِ العِلْمِيَّة

السَّنَةُ (الثالثة)/المجلَّدُ (الثالث)/العَدَدُ (العاشر)

ربيع الثاني ١٤٤٠هـ/كانون الأوَّل ٢٠١٨م

العتبة العباسيَّة المقدَّسة. قسم شؤون المعارف الإسلاميَّة والإنسانيَّة. مركز تراث الحِلَّة.
تراث الحِلَّة : مجلَّة فصليَّة محكَّمة تُعنى بالتراث الحِلِّي / تصدر عن العتبة العبَّاسيَّة المقدَّسة قسم شؤون المعارف المعارف الإسلاميَّة والإنسانيَّة مركز تراث الحِلَّة.- الحِلَّة/ العراق : العتبة العباسيَّة المقدَّسة، قسم شؤون المعارف الإسلاميَّة والإنسانيَّة، مركز تراث الحِلَّة. ١٤٣٧ هـ = ٢٠١٦-
مجلَّد : جداول، صور طبق الأصل ؛ ٢٤ سم
فصليَّة.-السنة الثالثة، المجلَّد الثالث، العدد العاشر (كانون الأوَّل ٢٠١٨)-
ردمد: 2412.9615
يتضمَّن إرجاعات ببليوجرافيَّة وكشَّافات.
النصّ باللغة العربيَّة ؛ ومستخلصات باللغة الإنجليزيَّة.
١. العلماء المسلمون (شيعة)--العراق--الحِلَّة--تراجم--دوريَّات. ٢. آل طاووس (أسرة) العراق--الحِلَّة--تراجم--دوريَّات. ٣. الحِلَّة (العراق)--تاريخ--دوريَّات. ألف. العنوان
LCC: BP192.8 .A8374 2018 VOL.3 NO. 10
مركز الفهرسة ونظم المعلومات التابع لمكتبة ودار مخطوطات العتبة العبَّاسيَّة المقدَّسة

أسرارُ العِباداتِ مِنْ منظارِ السيِّد ابن طاووس

The Secrets of Worship from Sayyid Ibn Tawoos Perspective

د. محمَّد هادي فلاح[1]

ترجمة : أيَّوب الفاضليّ

راجعه وصحَّحه وعلَّق عليه : أ.د. عليّ الأعرجيّ

مركز تراث الحِلَّة

Dr. Mohamed Hadi Falah

Translated by: Ayoub Al-Fadhli

Reviewed, Corrected and Commented by:

Prof. Dr. Ali Al-Araji

Hilla Heritage Center

ملخَّص البحث

للعبادات أسرار عظيمة، ويسعى كلُّ عالمٍ مشتغلٍ بالعرفان، والكتب العرفانيَّة أن يتناول الأسرار المـا ورائية للعبادات، كأن يكتب في أسرار الصلاة، وأسرار الصيام، وأسرار العبادات بصورة عامَّة، وقد لاحظ السيد ابن طاووسٍ وجودَ البُعدِ العِرفانيِّ في عبادات وأدعيَّة آل الله عليهم السلام؛ فسعى رحمه الله في بثِّها في مصنَّفاته، وكذا سارَ على خُطاه من جاء من بعده منَ العُرفاء.

Abstract

The worshiping has great secrets, every scientist worked in "Mysticism", and the books of mysticism to seek and deal with the Theology, like writing about the prayer secrets, secrets of fasting and secrets of worshiping in general, Iben Tawoos noticed that the existence of the mysticism in the prophet household(A'al Al-Bait) in their worshiping and prayers (PBUT); Ibn Tawoos sought to broadcast it in his works, as well as those who came after him and follow his footsteps from the mystical scientists.

تقديم

تُدَاولُ مسألة (أسرار العِبادات) بين العُرفاء بنحوٍ واضحٍ، بوصفها من مسائل علم العرفان العمليّ.

وتُعـدُّ هذه المسـألةُ من شـؤون العرفان، وخصائـص العُرفاء، كما هـو مفصَّلٌ في آثارهم[٢].

وإنْ شاء اللهُ تعالى نتناول في هذا البحث الجَنبة الباطنيَّة للعبادات، والأعمال القلبيَّة في المنظومة الفكريَّة للسيِّد ابن طاووس.

يعتقد العُرفـاءُ أنَّ للدِّين ظاهرًا، ويتمثَّلُ بالأحـكام، ويطلقون عليه الشَّريعة، وله ما وراء هذا الظاهر باطنًا، وهو حقيقتُه ويسمُّونها الطَّريقة[٣].

ويؤمـن العُرفاء أنَّ مغزى الأحكام ما وراءها، «وإليه ﷻ الاختيار فيما تُعبِّدَ به مِنَ العِبادات»[٤].

ومن هنا عنى العرفاءُ بالأسرار الباطنيَّة للعبادات، ولهم في ذلك مؤلَّفات.

وفي هذا السِّـياق يقول السـيِّد: «واعلمْ أيُّهـا الأخ أيَّدك اللهُ، وإيَّانا بـروحٍ منهُ أنَّك إذا نظرتَ أسرارَ النَّواميس الإلهيَّة، وتأمَّلْتَ السُّـننَ الشَّرعيَّة، وتبيَّنتَ أغراضَ واضعي النَّواميس كان هذا الذي ذكرتُ لك»[٥].

كما أشار علماءُ الدِّين الكِبارُ إلى مسألة أسرار الدُّعاء، والعبادة في مصنَّفاتهم، ولـهُمْ

بيانات متعدِّدة في هذا المجال.

والباعثُ لهُم على ذلك أنَّ كثيرًا من تعاليم الشَّريعة، وبرامجها بالمعنى العامِّ لها جنْبةٌ باطنيَّةٌ عباديَّةٌ، تكمنُ وراء صُورتها الظاهريَّة.

وتأثَّر ابنُ طاووس بالعُرفاء في هذه المسألة، وهذا يظهرُ عبرَ ما كتبه من الأسرار[٦] في الأدعية، والعبادات، ومثال على ذلك ما ذكرهُ في أسرار الأذان والإقامة[٧]، والرُّكوع[٨]، والسُّجود[٩]، وغيرِ ذلك[١٠].

وعرض ابنُ طاووسٍ في كتابه (غياث سُلطان الورى لسكّان الثَّرى)[١١] لطائف من شأنها التّأمُّل في ما يخصُّ الصلاةَ، وما ألمح إليه من معانٍ، فيها قُرَّة عين للعارفين[١٢].

ونُطالع في هذا الكتاب أيضًا المعانيَ الباطنيَّة، والأسرارَ للأذان، وهو قريبٌ لما ذكره في (مفتاح الفلاح)؛ فراجِع[١٣].

كما ذكر في (كشف المحجَّة لثمرة المهجة) تحت عنوان (العبادات كلمات نافعات لأهل السعادات)[١٤]- هي: الصَّلاةُ، والصِّيامُ، والزَّكاةُ، والحجّ، والجهاد- طرفًا من أسرارها لولده[١٥].

ووضَّح لابنه فيما وضّحه قدس سره العمقَ القلبيَّ، والعقليَّ للصِّيام، وما له من أسرارٍ باطنيَّة[١٦].

واقتفى ابنُ طاووسٍ طريقةَ العُرفاء في الفلسفةِ الباطنيَّة في نِطاق العبادات[١٧]، وفسَّرَ ذلك على نهجهم.

كما لاحظ ابن طاووسٍ وجودَ البُعدِ العِرفانيِّ في عبادات وأدعيَّة آل الله عليهم السلام؛ فسعى قدس سره في بثِّها في مصنَّفاته، وكذا سارَ على خُطاه مَن جَاء مِن بعده مِن العُرفاء[١٨].

ويمكنُ عدُّ أهمِّ أعمال ابن طاووسٍ العرفانيَّة ما صنَّفه من كتابٍ في هذا المِضمار، وهو (أسرار الصَّلاة وأنوار الدَّعوات)[١٩]؛ إذ كتبه بأسلوبٍ خاصٍّ، وطريقة مخصوصةٍ.

ومـنَ الواضح أنَّ النُّصـوص العباديَّة هي عاملٌ أسـاسٌ، وباعثٌ ضروريٌّ لتغييرِ ما تلوَّث من الباطن، وكان قدس سره بشـكلٍ عامٍّ يتعاطى مع كتاب (مصباح الشَّريعة، ومفتاح الحقيقة) بنحوٍ جليٍّ.

ويُنقـلُ عنه قدس سره حديثًـا في هذا المضمار أنَّ الكتاب المتقدِّم «عـنِ الإمام الصَّادق عليه السلام؛ فإنَّـه كتابٌ لطيفٌ، شريـفٌ في التَّعريف بالتَّسـليك إلى الله جل جلاله، والإقبال عليه، والظَّفر بالأسرار التي اشتملتْ عليه»[٢٠].

وها نحنُ نعرِضُ هنا نظرَ ابن طاووسٍ قدس سره لأسرار العبادات عبرَ عنوانات، وهي:

١. مكانةُ أسرار العبادات:

ولجَ ابنُ طاووسٍ لما وراء الظَّاهر، وأعرب عن وجودِ أسرارٍ للعبادة، وبعضٌ منها كُشف من زاويةٍ خاصّةٍ.

وليُعلـمْ أنَّ للعبادة والأدعية الدّينيَّةِ حقائقَ متعـددة؛ فهي معبِّرة من قلب، وروح النبـيّ، وأهل بيتـه عليهم السلام، ومنه يظهر مـا فيها من أسرارٍ تلـوحُ ما بين السُّـطور للمتتبِّع؛ فلْيُتفطَّنْ.

وينبـه السـيِّد للحصـول على تلـك اللئـالي، والأسرار يُفـترض بالطَّالـب لها من مقدِّماتٍ، وإلَّا فهي للخواصِّ، وفي هذا المضمار يقول:

«إنَّ أسرار خواصِّ الله جل جلاله ونوَّابه ما يتطلَّع كلُّ أحدٍ على حقيقة معناه»[٢١].

ومن هُنا لا يمكن أن يكون كلُّ شخصٍ مستودعًا للأسرار إلَّا المطَّلع على الغايات،

وبتعبيرِ ابن طاووس:

«فـإنَّ أسرار العبـادات لا يعلمهـا جميعًـا [جميعهـا] إلَّا المطَّلـعُ عـلى الغايـات [الغائبات][٢٢]، وإليه جل جلاله الاختيار فيما تعبَّد به من العبادات»[٢٣].

وفي نصٍّ آخرَ:

«أمَّـا تعيين وجه اختيار الله جل جلاله من العبد أن تكونَ خدمتُه له بجنسٍ من الطَّاعات، وعلى وجهٍ متعيَّنٍ في بعض الأوقات؛ فهذا طريقةٌ عن العالم بالغائبات على لسـان رسـله «صلَّى الله على نبيِّنا وآله وعليهم السـلام»، وعلى لسـان ملائكته، ومن شاءَ من خاصّته عليهم أفضل الصَّلوات»[٢٤].

كما حظيتْ مسـألةُ أسرار العبادات لدى العرفاء بأهميَّةٍ خاصَّةٍ؛ ففي نظرهم أدعيَّة، وعبـادات الأئمَّـة عليهم السلام مثـارُ للحَيرة، والتعجُّـب؛ لِما فيهـا من لطائف المعـارف الحقَّة الإلهيَّة[٢٥].

وفِي هـذا المِضمار إنَّ كشـفَ الأسرار مبدأُ المعارف، وتتجـلَّى أعظم وأدقُّ الأسرار مـا كان بين الحقِّ المُطلق، وأحبائه، وأصفيائه عليهم السلام، وأيضًا هذه الأسرار تفسـحُ لإطلالةٍ على المعرفةِ الغيبيَّةِ[٢٦].

واتّبـع السـيِّدُ العـارفُ الخمينيّ قدس سره أثرَ ابن طـاووسٍ في كيفيَّة صُـدور الأدعية من الأولياء المُخلَصين، يقول السيَّد الخمينيّ في هذا الموضوع:

«هناك من أفنى نفسَهُ في الحقِّ تعالى، ولمْ يرَ سواهُ؛ صدرت هذه الأدعية الكريمة في حـال الصَّحوِ قبل المحوِ، أوْ بعد المحوِ، والفناء في ذاته المُقدّسـة، ولا تمتدُّ أيدينا إلى غير أولياء الله الخُلّص»[٢٧].

ويعدُّ السيِّدُ الخمينيُّ أدعية المعصومين عليهم السلام بابًا للمعارف، يقول في هذا الأمر:

«ينبغـي نيلُ المعارف من الأدعية، ولا يمكن نيلُها عبرَ الأخبار التي كان المُخاطَبُ بها عموم النّاس.

ويُفترض تعلّمُ المعارف من الأدعية؛ لأنَّ طرفَ الخطاب فيها الحقُّ سـبحانَه؛ ولذا نرى جُملَ الفُصوص مع معنى الأدعية مطابقًا...»[٢٨].

وفي موضعٍ آخرٍ يقول:

«ونفخـرُ أنّ الأئمَّةَ المعصومين عليهم السلام بدءًا بعليِّ ابن أبي طالبٍ وانتهاءً بمُنقذ البشريَّة، حـضرة المهـديّ صاحـبَ الزَّمانِ، الحـيّ النَّاظرَ على الأمـور بقدرة الله القـادر «عليهم آلاف التحيّـات والسَّـلام» هم أئمَّتُنا، ونفخـرُ أنَّ الأدعية الخلّاقةَ التي تُسـمّى بالقرآن «الصّاعد»، هي من أئمّتنا المعصومينَ، نفخرُ بمناجاةِ أئمَّتنا الشَّعبانيَّة، ودعاءِ الحسينِ بن عـليّ عليه السلام في عرفة، والصَّحيفة السَّـجاديَّة التي هي زبورُ آلِ مُحمَّـد، والصَّحيفةُ الفاطميَّة هي الكتاب المُلهَم من قبل الله تعالى للزَّهراء المرضية عليها السلام»[٢٩].

وممَّـا ينبغي التَّنبيـهُ له أنَّ أسـاسَ نظريَّة العُرفـاء في أسرار العبادات هـو الأدعيةُ، والعباداتُ، والإشاراتُ للنّبيِّ، وأهل بيته عليهم السلام.

ويعتقد ابنُ طاووسٍ أنَّ اللهَ تعالى يزيحُ لأوليائِهِ السِّـتارَ عنِ الأسرار بمنِّه وفضلِه، ويشهدُ على هذا النَّقلُ، والعقلُ[٣٠]، وهو لا يُعدُّ نحوًا من الوحي، يقول ابن طاووس:

«أقول: واعلمْ أنَّ إلقاءَ هذه الأسرار في السـنَّة إلى وليِّ الأمر ما هو من الوحي؛ لأنَّ الوحي انقطع بوفاة النبيّ صلى الله عليه وآله؛ وإنَّما هو بوجه من وجوه التَّعريف...»[٣١].

وألهم النبيّ الأعظم صلى الله عليه وآله الأئمَّة الأطهار، وخزائن أسراره الأسرارَ الربَّانيَّةَ.

«أنّـه صدرَ عنِ النبـيّ الأعظمﷺ المؤيّـد بالألطـافِ، والوحي، بالعِنايـة الإلهيَّة، والاطِّلاع على الأسرار الربَّانيَّة، والمصالح الدِّينيَّة والدُنيويَّة»[٣٢].

وقالَ في موضعٍ آخر:

«واعلمْ أنَّ في هذه القنوتات إشـاراتٍ منهمعليهم السلام إلى ما كانتْ حياتُهم عليه في تلك الأوقـات، وإلى معرفتهم بما يتجدَّدُ بعدَهم مـن تأخيرِ دولتهمْ، وإظهارِ التألُّم من دفعهم مـن إمامتهِمْ، وعن فـرض طاعتهم، وفيها منَ الأسرار ما قد دلُّـوا عليه كثيرًا من ذوي الأبصار»[٣٣].

ويعلِّقُ ابنُ طاووسٍ عند حديثه عن دعاء الإمام الجوادعليه السلام؛ فيقول:

«إنَّهُ منْ أسرار الله عندَ خاصَّته»[٣٤].

ويـرى قدس سره أنَّ البابَ لـلأسرار مؤصدٌ، ولا يدخلـه إلَّا منِ اختـارهُ اللهُ تعالى، ويتمُّ ذلك؛ إمَّا عن طريق النبيﷺ، أو الملائكة أو الأولياءعليهم السلام.

«... وأمّـا تعيـين وجـهِ اختيـار اللهِجل جلاله من العبـد أن تكون خدمتُه لـه بجنسٍ من الطَّاعـات، وعلى وجهٍ متعيَّنٍ في بعض الأوقات؛ فهذا طريقـة عن العالم بالغائبات على لسـان رُسلهِ «صلَّى الله على نبيِّنا وآله وعليهم السَّـلام»، وعلى لسان ملائكته، ومن شاء من خاصّته، عليهم أفضل الصَّلوات»[٣٥].

ومذهـبُ ابن طاووس في بيـان أسرار العبـادات، وصدور البرامجِ مـنَ العُرفاء، وما يتعلّق بذلك، له إشارةٌ في ما ورد عن أهل البيتعليهم السلام، قال قدس سره:

«الـذي رويناهُ عـن سـلفائِنا الطَّاهرين العارفـين بتأويـلِ القـرآن، وأسرار ربِّ العالمين»[٣٦].

ويقولُ في أسرار الأذان والإقامة:

«هما مسنونانِ، وفيهما أسرارٌ»[٣٧].

وفي موضعٍ آخرَ:

«وإذْ قدْ ذكرْنا بعضَ ما روينا منْ أسرار الأذان، والإقامة»[٣٨].

ويلاحظُ على مسلك ابن طاووس في بيان أسرار العبادات، والأدعية لم يتقوَّلْ من عنديَّاته، واستند في ما أورده على القرآن الكريم، والروايات والأدعية، وعبادة المعصومين عليهم السلام، ومنه نتجتِ البرامج العرفانيَّة.

يقول ابن طاووس في هذا الصَّدد:

«لقد وجدت من دعوات النبيّ صلى الله عليه وآله، والأئمَّة عليهم السلام في الاستِخارات ما يفهم منه قوَّة العناية منه صلى الله عليه وآله، ومنهم صلوات الله عليهم بها، وتعظيمهم لها حتَّى لقد وجدتُ أنَّها من جملة أسرار الله عز وجل التي أسرَّها إلى النبيِّ صلى الله عليه وآله لـمَّا أُسريَ به إلى السَّماء، وأنَّها من أهمِّ المهامِّ، ووجدتُ أنَّ آخر مرسومٍ خرجَ عن مولانا المهديِّ عليه السلام، وعلى آبائه الطاهرين دعاءُ الاستخارة، وهذا حجَّةٌ بالغةٌ عند العارفين»[٣٩].

٢. الشُّروط:

يشترط قدس سره شرطين للإفصاح عن أسرار العبادات للآخرين:

الشَّرط الأوَّلُ: يتعلَّق بالمتكلِّم، وهو أن يكون مأذونًا بذلك.

والشَّرطُ الثَّاني: يتعلَّقُ بالسَّامع، وهو أن يكون من أهلِ الاستقامةِ، والتَّوفيقِ، وثمَّة وجود مصلحة لبيان الأسرار له.

وإنْ شاءَ اللهُ سنبحثُ هنا الشَّرطينِ:

الشَّرطُ الأوَّل: الإذنُ

يعتقـدُ ﷺ ما موجود من تشـابه في اللفظ، والمعنى في بعـض الأدعية يضمُّ في طيَّاته أسرارًا.

«وربَّما جاء في بعض الدَّعوات المذكورةِ مشـابهةُ لفظ، أو معنى لأجلِ ما عرفته من الأسرار المذكُورة التي يذكرُها خواصُّه عنه ﷻ، وبإذنه، وإذن رسـوله ﷺ في زمانٍ دون زمان، ولإنسانٍ دون إنسانٍ»[٤٠].

وأومأ ابنُ طاووسٍ في مصنَّفاته إلى أنَّ لديه إذنًا في بيان بعضِ الأسرار[٤١]، وأشـار لذلك عندما تحدَّث عن أسرار الصَّلاة، والدُّعاء؛ فراجِعْ[٤٢].

وتُعدُّ مِنَ المسائل المهمَّة في العرفان العلميِّ، والعمليِّ، والخُطوة الأساسِ للسَّالك، أخـذُ الإذنِ مـنَ الله تعالى، أو بوسـاطة المُـربِّي؛ فهو يطَّلـعُ على أحواله، ويتابع سـلوك «المُريـد»، وحركاتِه، وسـكناته؛ ولعلَّ ابـن طاووسٍ في قولِه «بعض مـا فتح الله ﷻ ممَّا أنشـأتُه»[٤٣]، يُشـير لهذا المعنى المتقدِّم، وكان ﷺ يعدُّ الاستخارةَ نحوًا من الإذن، وكثيرًا ما يعتمدُ عليها، ومعه فالإذن في نظره ﷺ له أهميَّةٌ خاصَّةٌ.

الشَّرطُ الثَّاني: الاستقامةُ

لا ينبغِـي الإفصـاحُ عـن أسرار العبادة لأيِّ أحـدٍ؛ وإنَّما تُعطى لأهلِ الاسـتقامة، «فلنذكُـرْ ما نريدُ ذكرهُ ممَّا يحتاجُ إليه أهلُ الاسـتقامة»[٤٤]؛ فيذكر بعضَ النُّكات للعُرفاء حول الأذان والإقامة؛ فيقول:

«ويقـول كلّ كلمـةٍ منهـا بالصـدق وموافقـة السريـرة للعلانيَّة عـلى صفة أهل الاستقامة»[٤٥].

ويعتقد ابنُ طاووسٍ أنّه لا بدَّ أن يكون المُتحدِّثُ بالأسرار أن يلاحظ أهليَّة السامع، وجدارته، وهذا أمرٌ مهمٌّ جدًّا؛ «فإنْ أدركتَ يا ولدي موافقةَ توفيقك لكشف الأسرار عنك»[٤٦].

واللافتُ للنَّظر أنَّ السيِّد مع كون السَّامع مستحقًّا لتلقِّي الأسرار إلَّا أنَّه يعلِّق الإفصاح عنها بحسب المصلحةِ، يقول:

«نذكر بعضَها بحسبِ المصلحةِ»[٤٧]، «أقول: ولعلَّ هذه الرِّوايةَ تختصُّ بوقتٍ دون وقتٍ، وعلى حالٍ دون حالٍ، ولا إنسانٍ دون إنسانٍ»[٤٨].

ويعتقدُ أيضًا أنَّ تعليمَ الأدعية بمقدار الأفراد، وقابليَّتهم[٤٩].

مع أنَّ ابن طاووس لم يُعرّفْ أهلَ الاستقامة بطريقةٍ واضحةٍ، ولكن يمكن أن نلمسَ الميزانَ، والمعيارَ لهمْ من آثار الأئمَّة عليهم السلام، يقول في هذا السياق:

«ثمَّ يسلك به سبيل معرفة النبوَّة والإمامة على قاعدة تعريفِ النّبيِّ، والأئمَّة عليهم السلام، ومن سلك سبيلهم من أهل الاستقامة؛ فهذا كان كافيًا لمن يريد تحصيل السَّلامة، وسعادة الدُّنيا، ويوم القيامة»[٥٠].

وممَّا ينبغي الالتفاتُ له أنَّ الأشخاص الذين يمتلكون أسرار العبادة لا بدَّ لهم من إذنٍ لنقلها للغير، ويفترض أن يكونوا من أهل الاستقامة والتَّوفيق، وهناك مصلحةٌ من الأدلاء لهم بالأسرار، وإلَّا فلا يجوز التفوُّه بها؛ فلا تغفلْ.

٣. سرُّ علاقة الزَّمان في العبادات

بيَّن ابنُ طاووسٍ في ما كتبه أهميَّةَ المُناسبات الزَّمانيَّة في العِبادات، ورمزيَّتها، ومعه ستكون محوريَّة هذه الفقرة العلاقات الزَّمانيَّة، وسرّها عند ابن طاووس.

لـمَّا كان قدس سره ملتفتًا لأهميَّة الزَّمان في الأدعية، كما وردَ من أسرارٍ في الرِّوايات؛ فكانتْ تصانيفُه على هذا الضوء؛ فنراها مقسَّمة على سنويَّةٍ، وشهريَّةٍ، وأسبوعيَّةٍ، ويوميَّةٍ، «وكانوا قدوةً لمنِ اقتدى بآثارهم، واهتدى بأنوارهم»، ومن هنا استندَ قدس سره من أنّ هناك علاقةً بين الزَّمان والأدعية بسيرة المعصومين عليهم السلام، قال:

«أمَّا تعيينُ وجهِ اختيار الله جل جلاله من العبد أن تكون خدمتُه له بجنسٍ منَ الطَّاعاتِ، وعلى وجهٍ متعيَّنٍ في بعض الأوقات؛ فهذا طريقة عن العالم بالغائبات على لسان رسله «صلّى الله على نبيّنا وآله وعليهم السّلام»، وعلى لسان ملائكته، ومن شاء من خاصَّته عليهم أفضل الصّلوات»[٥١]، «إنّما نذكر ها هنا رواية تتضمّن سببَ تعيين أوقات الفرائض؛ لينكشفَ بذلك وجهه وسرُّه»[٥٢].

ويؤمن قدس سره من أنّ هناك عنايةً ربَّانيَّةً لكلِّ بداية شهر؛ فإنَّه يضمُّ أسرارًا، «واعلمْ أنّ الله جل جلاله تفضّلَ علينا بأسرارٍ ربانيَّة، وأنوارٍ مُحمديَّة، ومبارٍّ علويَّةٍ، منها تعرفنا بأوائل الشُّهور»[٥٣].

كما أكّد السيِّدُ في كتابيه (الإقبال)، و(فلاح السّائل)، وغيرهما أهميَّة علاقة الزَّمان، وأسرار العبادات؛ ولذا نراهُ يوصي لمن قصد السَّفر «ينبغي أن يحمل معه لنهاره في أسفاره كتاب الأسرار المُودعة في ساعات الليل، والنَّهار»[٥٤].

ويعتقد قدس سره أنّ للعباداتِ مناسباتٍ يُراعى حالُ الإنسان فيها، وأيضًا يلاحظ بها الزَّمان؛ فله سرُّه ورمزُه؛ «فإنّ لأوقات القبول أسرارًا لله جل جلاله ما تُعرفُ إلَّا بالمنقول»[٥٥]؛ فلا يُعرف أسرار الزَّمان إلَّا عن طريق الآية والرُّواية، وأمَّا على ما ذهب إليه الشيخ حسن زاده الآمليّ من إمكانيّة التعرُّف على بعض الأسرار عن طريق المعقول يحصل عبر شعورٍ، وإدراكٍ رمزيٍّ له[٥٦]؛ فتتوسَّعُ دائرة المراجع في استلهام الأسرار إلى الآية،

والرُّواية، والمعقول.

ويبيِّنُ ابن طاووسٍ طرفًا من أسرار الزَّمان؛ فيقول:

«اعلمْ رحمك الله أنّ كلَّ وقتٍ اختاره [تختاره] اللهﷻ لدعوة عباده إلى حبِّه، وقُربه، وإسعاده، وإنجاده، وإرفاده؛ فإنَّ ذلك من أوقات إقبال العبد، وأعياده؛ حيثُ ارتضاه اللهﷻ الموقوف [للوفود] بشريفِ بابه، وشرفه بما لم يكُنْ في حسابه»[٥٧].

ويشيرﷺ إلى نماذج عدّة تظهر فيها علاقة الزَّمان بأسرار العبادات مثل ليلة ٢٥ من ذي القعدة، وما فيها من أعمالٍ، وبرامج، «ودخول فيما فتحه اللهﷻ في تلك الليلة من الأنوار، والأسرار»[٥٨].

وقالﷺ:

«اعلمْ أنَّ أوقات العبادات، والمُراد منها للهﷻ في تلك الأوقات مرجعه إلى العالم بمصالح العباد، وما يكون أنفع لهم في الدُّنيا، والمعاد»[٥٩].

وفي نصٍّ آخر:

«أقول: وينبغي أن يكون مع إذكار عقلك، وقلبك، ونفسك باطِّلاع اللهﷻ عليك في هذا شهر ذي الحجّة الذي أنعم اللهﷻ به عليك، وجعله رسولًا يهدي ما فيه من الفضائل [الفضل] إليك على صفاتِ من يتلقَّى نعمتهﷻ بالتَّعظيم، والثَّناء الجسيم، ويتلقّى رسوله بالتَّكريم، والإقبال على شكر ما أهداه إليك من الفضل العظيم، وأشغل جميع جوارحك بما يختصُّ كلّ منها من العبادات حتَّى تكون ذاكرًا للهِﷻ في ذلك العشر فعلًا، وقولًا في جميع التصرُّفات ...»[٦٠].

وفي موضعٍ آخرَ:

«... قد ذكرنا في عدّة مواقيتٍ معظَّماتٍ ما يختم زمان تلك الأوقات؛ فيعمل على ما ذكرناه، ونذكر هاهنا ما معناه أنّ كلَّ وقتٍ اختصَّ الله جلّ جلاله بخدمته به، وجعله محلًّا لبسط فراش رحمته، وإطلاق المواهب لأهل مسألته للابتداء لمن لم يسأله من خليقته؛ فكلُّ من أخرج من ذلك الوقت شيئًا في غير العبادة، وطلب السَّعادة؛ فكأنَّه قد سرق الوقت من مولاه، وهتك الحرمةَ، وخرج عن رضاه، ونازعهُ في إرادته، وتعرَّض بما لا طاقةَ له به من نقمته؛ فأيُّ إنسانٍ، أو أيُّ جنانٍ يكون عارفًا بمالك رقاب العبيد...»[٦١].

ويذكر قدس سره من أنَّ أشهُرَ السَّنة هي عبارة عن مراحل، ومنازل للتَّكامل[٦٢]، وبتعبيره:

«واعلم أنَّ هذه الشُّهور التي يأتي ذكر عبادتها، وشرح خيراتها هي كالمراحل، والمنازل من حيثُ خرج الإنسان من بطن أمِّه إلى أن يصلَ إلى انقضاء أمر الدُّنيا الزَّائل، وفي كلِّ منزلٍ منها مُذ ارتضاه مولاه لتشريفه بتكليفه ذخائر، وكنوز، وجواهر بقدر ما تضمّنه النَّقلُ، والشَّرع الظَّاهر...»[٦٣].

وممَّا تقدَّم يتَّضحُ أنَّ السيِّدَ لا يعدُّ كلَّ أوقات الزَّمان بمنزلةٍ واحدة، وكذا لا تكون مناسبةً لجميع الأفراد، قال في هذا السِّياق:

«أقول: ولعلَّ هذه الرِّواية تختصُّ بوقتٍ دون وقتٍ، وعلى حالٍ دون حالٍ، ولا إنسانٍ دون إنسان»[٦٤].

ونبّهَ قدس سره على أنّ علاقة الزَّمان بأسرار العبادات أحيانًا قد لا تكون واضحة؛ كوضع الأشهر رجب، وشعبان، وشهر رمضان على التَّوالي متَّصلة؛ فلاحظْ وتأمَّلْ[٦٥].

«اعلم أنّنا كنَّا قد ذكرنا في أوَّل ليلة من رجب، وأوَّل يوم منه طرفًا من حُرمة هذا

الشَّـهر، والحماء الذي جعله الله ﷻ ممّا لا يسـهل على العارف به الخروج عنه، وأنت إنْ كنتَ مُسـلمًا تجد فرقًا بين الدُّخول في حرم الملوك، وحِماهم لرعاياهم، وبين الخروج عن الحِمى، والحرمِ الذي شرَّفهم به، وحفظهم بسببه، ووقاهُمْ»[٦٦].

وأنَّـه ﷺ بـيَّن يوم الخامس عـشر من رجب، وما فيه مـن أسرارٍ، وأفرد لـه عنوانًا، وكـذا ليالي القدر (١٩، ٢١، ٢٣من شـهر رمضان المُبارك)، وما فيهـا من أسرارٍ إلهيَّة، «وجـدتُ في الأخبـار أنَّ كلَّ ليلةٍ من هذه الثَّلاث المذكورة فيهـا أسرارٌ لله ﷻ، وفوائد للعباد [العبادة] مذخورة»[٦٧].

كما تحدَّث عن عيد الفطر، قال:

«اعلـمْ أنَّ نهار يـوم العيد فتحُ بابٍ سـعيد، وتجديـد فضل جديدٍ لم يجـرِ مثلُه منذ سـنةٍ ماضيةٍ، ويمضي؛ فـلا يعودُ مثلُه إلى نحوِ سـنةٍ آتيةٍ، وما يخْفى عـلى ذوي الألباب أنَّ فتح الأبواب التي تكون في الأوقات المتباعِدات بزيادة السَّـعادات لها حقُّ التَّعظيم، والاحـترام، وحـقُّ الاعتراف لصاحب الإنعام، ولزوم الآداب في سـائر الأسـباب مع مالك يوم الحساب»[٦٨].

وفي نهاية المَطاف؛ فإنَّ مسـألة (أسرار العبادات من منظارِ السـيِّد ابن طاووس ﷺ) حـريٌّ بها أن تُكتب بها الكتبُ، والأطاريح، والرَّسـائل؛ فإنَّـه موضوعٌ غضٌّ، وما هذه المقالة إلَّا خطوةٌ في هذا الطَّريق.

هوامش البحث

(١) دكتور متخصِّص في التصوُّف والعرفان الإسلاميّ، مؤلِّف كتاب (عِرفان السيِّد ابن طاووس) باللغة الفارسيَّة.

(٢) راجع: الفتوحات المكِّيَّة، ومجموعة رسائل ابن عربيّ، وفصوص الحكم، ومصباح الإنس، وإحياء العلوم، ومؤلَّفات علاء الدولة (فارسيَّة)، وشرح مصباح الشريعة للكيلانيّ (فارسيّ)، ومفتاح الحقيقة للسيِّد حيدر الآمليّ، وتفسير المحيط، له أيضًا، و أسرار الصلاة للملكيّ التبريزيّ، والمراقبات له أيضًا، وسرّ الصلاة، وآداب الصلاة، والأربعون حديثًا، وشرح دعاء السَّحر للسيِّد الخمينيّ.

(٣) لاحظ: فلاح السائل ونجاح المسائل: ١٢٥.

(٤) إقبال الأعمال: ٣٠٨.

(٥) فرج المهموم: ١١٦.

(٦) لاحظ: كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٩٢-٢٠٠، ونهج الدعوات ومنهج العبادات: ٣٤٨، وأيضاً ما كتبه في فلاح السائل من أسرار الصلاة وغيرها.

(٧) انظر: المصدر نفسه: ١٠٨.

(٨) لاحظ: المصدر نفسه: ١١٠.

(٩) راجع: كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٩٩-٢٠٠.

(١٠) المصدر نفسه: ١٩٧

(١١) وهو في قضاء ما فات من الصلوات عن الأموات. انظر: الذريعة: ١٦/ ٧٣. د. عليّ الأعرجيّ.

(١٢) انظر: فلاح السائل: ١٢٧.

(١٣) المصدر نفسه: ١١٤.

(١٤) راجع: كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٩٩-٢٠٠.

(١٥) لا يخفى عليك من أنَّ الكتاب المشار إليه هو (وصيَّة السيِّد ابن طاووس لولده محمَّد).

(١٦) راجع المصدر نفسه: ٢٠٠.

(١٧) فلاح السائل ونجاح المسائل: ١٢٥.

(١٨) مثلًا على ذلك انظر: أسرار الصلاة للملكيّ التبريزيّ، والمراقبات له أيضًا، وسرّ الصلاة، وآداب الصلاة، والأربعون حديثًا، وشرح دعاء السَّحر، وشرح حديث جنود العقل للسيِّد الخمينيّ.

(١٩) أو مختار الدعوات وأسرار الصلاة، سمَّاه المؤلِّف في ديباجته بكِلَا الاسمين، وهو السيِّد رضيّ الدين أبو القاسم عليّ بن موسى بن طاووس الحِلِّيّ المتوفَّى سنة ٦٦٤هـ، ذكر في أوَّله بعد الخطبة أنَّه عمد إلى تتميم مصباح المتهجد لجدِّه الأمِّيّ شيخ الطائفة الطوسيّ. انظر: الذريعة: ٢/ ٤٩. د. عليّ الأعرجيّ.

(٢٠) الأمان من أخطار الأسفار والأزمان: ٩١-٩٢.

(٢١) إقبال الأعمال: ٢٠٠.

(٢٢) ما موجود في النصِّ الذي بين أيدينا (الغائبات)، ويبدو أن صاحب البحث آثر كلمة (الغايات). د. عليّ الأعرجيّ.

(٢٣) المصدر نفسه: ٣٠٩.

(٢٤) المصدر نفسه: ٣٠٨.

(٢٥) المصدر نفسه: ٤.

(٢٦) صحيفة نور: ٢١/ ٢٠٩.

(٢٧) صحيفة الإمام: ٢٠/ ٣٥٥.

(٢٨) لاحظ: تقريرات الفلسفة دروس السيِّد الخمينيّ بقلم عبد الغني الأردبيليّ: ١/ ١٨٣. (فارسيّ).

(٢٩) صحيفة نور: ٢١/ ٣٩٦-٣٩٧.

(٣٠) فتح الأبواب: ١٠٧.

(٣١) الإقبال: ٦٥.

(٣٢) الطرائف: ٢/ ٤٥١.

(٣٣) مهج الدعوات: ٦٩.

(٣٤) المصدر نفسه: ٢٥٨.

(٣٥) الإقبال: ٦٥.

(٣٦) سعد السعود: ١٣٠.

(٣٧) فلاح السائل: ١٥١.

(٣٨) المصدر نفسه.

(٣٩) فتح الأبواب: ١٩٢.

(٤٠) فلاح السائل: ١٧.

(٤١) المصدر نفسه: ٦-٧.

(٤٢) المصدر نفسه: ٩.

(٤٣) المصدر نفسه.

(٤٤) المصدر نفسه: ١٥١.

(٤٥) المصدر نفسه.

(٤٦) . كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٥٣.

(٤٧) ينظر: فلاح السائل.

(٤٨) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ١٠٤.

(٤٩) فلاح السائل: ١٥١.

(٥٠) الإقبال: ١٤.

(٥١) المصدر نفسه: ١١٠.

(٥٢) كشف المحجَّة لثمرة المهجة: ٦٨.

(٥٣) الإقبال: ٥٢٩.

(٥٤) المصدر نفسه: ٤.

(٥٥) المصدر نفسه: ٦٢٦.

(٥٦) لاحظ: رسالة نور على نور: ٥٨.

(٥٧) الإقبال: ٣٠٩.

(٥٨) المصدر نفسه.

(٥٩) المصدر نفسه: ٥٣٧.

(٦٠) المصدر نفسه: ٣٠٩.

(٦١) المصدر نفسه: ٣٧٧.

(٦٢) المصدر نفسه: ٥٢٩.

(٦٣) المصدر نفسه: ٣١٦.

(٦٤) المصدر نفسه: ٤٥١.

(٦٥) المصدر نفسه: ٩٨٢.

(٦٦) المصدر نفسه: ٦٢٦.

(٦٧) المصدر نفسه: ١٤.

(٦٨) المصدر نفسه: ٦٨٢.

المصادر والمراجع

١. الأردبيليّ، عبد الغني، تقريرات فلسفة (فارسيّ)، مؤسَّسة تنظيم نشر آثار السيِّد الخمينيّ، طهران.
٢. الآمليّ، حسن زاده، رسالة نور على نور، انتشارات حكمت، قم.
٣. الخمينيّ، روح الله، صحيفة نور (مجموعة آثار السيِّد الخمينيّ)، مؤسَّسة تنظيم نشر آثار السيِّد الخمينيّ، طهران.
٤. السيِّد ابن طاووس، عليّ بن موسى، سعد السعود للنفوس منضود، دار الذخائر، قم.
٥. السيِّد ابن طاووس، عليّ بن موسى، فرج المهموم في معرفة نهج الحلال من علم النجوم، دار الذخائر، قم.
٦. السيِّد ابن طاووس، عليّ بن موسى، كشف المحجَّة لثمرة المهجة، تحقيق: الشيخ محمَّد حسُّون، مؤسَّسة بوستان كتاب، قم.
٧. السيِّد ابن طاووس، عليّ بن موسى، الطرائف في معرفة مذاهب الطوائف، مطبعة الخيام، قم.
٨. السيِّد ابن طاووس، عليّ بن موسى، فلاح السائل، دفتر تبليغات إسلامي، الحوزة العلميَّة، قم.
٩. السيِّد ابن طاووس، عليّ بن موسى، مهج الدعوات ومنهج العبادات، منشورات مؤسَّسة الأعلمي.
١٠. السيِّد ابن طاووس، عليّ بن موسى، إقبال الأعمال، الطبعة الجديدة، مكتب الأعلام الإسلاميّ، مركز النشر.
١١. السيِّد ابن طاووس، عليّ بن موسى، فتح الأبواب، مؤسَّسة أهل البيت عليهم السلام، قم.